جديد ... في القصة العربية

في العدد السابق من « الآداب » ، قصة « اللص » لعلي بدور (حلب) ، وقصة (بشر وأرض وزمن » لمحمد روزنامجي (بغداد) ، وهما اقرب الامثلة في ذاكرتي الآن ، الى الفكرة التي اريد ان اوضحها في هذه السطور .

ليست القصتان من النمط العالي في القصة العربية الحديثة ، ولكنهما تنهجان – في منحاهما الفني – هذا النهج الجديد في تصوير الحياة الواقعية التي نحياها ، بحيث يصح ان نضرب بهما مثلاً على ما يدخل قصتنا العربية الآن من دم جديد، وحياة جديدة ، واتجاه جديد .

كلتا القصتين تتحدث الينا عن شيء من واقع حياتنا العامة ، أعني حياتنا الاجتماعية ، أو قل : حياتنا الانسانية الوطنية،ولكنهما تختلفان كل اختلاف ، بالطريقة الفنية ، او المعالجة ، او المنحى « الشخصي » في تناول التجربة الانسانية .

ففي القصة الاولى مشاهد وصور وحوادث تتصارع في حياة إنسان ، هو من صميم انسانيتنا الحاضرة التي يصطرع فيها جيلان ، وتصطرع فيها عقليتان ، ثم يصطرع فيها ، مع ذاته ، نظام قد استنفد كل طاقته ، واصبح غير قادر ان يهب انسانيتنا الحاضرة هذه ، غير الآلام ، او الآثام .

وفي القصة الثانية طراز من هذا الانسان الذي نعيشه في حياتنا اليومية الواقعية ، هذا الانسان الذي يملأ نفسه صراع الجيلين وصراع العقليتين ، وصراع النظام الاجتماعي مع ذاته . فهو يتوثب الى ان يكون إنساناً جديداً ، ولكنه يرى اثقال الجيلين والعقليتين ، واثقال النظام الذي يصارع ذاته بذاته ، قد ملكت عليه امره ، فهي تشده الى الفراغ ، الى وجود تافه : « مجرد وجود . بشر وأرض وكفى ! أي شيء ؟ وجود . مجرد وجود . بشر وارض وزمن !. أما المستوى ، مستوى الحياة ، مستوى العيش ، أما النتيجة ، قيمة الانسان، فلا شيء ... لا شيء ! مجرد وجود ! »

كلتا القصتين – إذن – من معدن واحد ، أعني من معدن هذه الحياة الانسانية التي نعانيها – نحن العرب – في مرحلتنا التاريخية الحاضرة ، ولكن هذا قاص يصوغ من هذا المعدن ، حياة ذات تجارب خاصة وملامح متميزة ، وذاك قاص يصوغ من هذا المعدن نفسه حياة ذات تجارب خاصة وملامح متميزة ايضاً ، ثم يقع الاختلاف بين الحياة في قصة، والحياة في قصة اخرى ، بما تستمده كلتاهما من تجارب القاص الفكرية والنفسية والتعبيرية ، ومن ملامح « شخصيته » المتميزة ، ومن مقدار الاصالة الفنية عنده .

وهذا يعني ان القصة الواقعية ، ليست « حكاية » للواقع كما هو ، وإنما هي تنصهر « انصهاراً كاملاً في تجربة القاص ، أي في عناصر ذاته ، ووجدانه ، وأداته .

ولقد كان هذا ، الى زمن قريب ، غير واضح في اذهان اهل الفن والادب عندنا ، ولكن القصة العربية الطالعة علينا الآن ، من بغداد والقاهرة ودمشق وبيروت وحلب وعمان ، وحتى تونس وفاس والدار البيضاء ، وحتى الظهران والبحرين والكويت وسائر المدن والحواضر العربية ، قد اخذت سمتها الى هذا النهج الفني الانساني ، وأخذت تدل على قيمة « الواقعية » في الفن باطلاقه ، وهي جاهدة ، الآن ، في تبديد هذا « الضباب » الكثيف الذي كان يحول بين بعض الاذهان وبين هذه « الطاقات » الفنية العظيمة التي يستطيع الواقع من حياتنا اليومية ان يتفجر بها فناً قوياً حياً حين تطالها ايدي الموهوبين من الشعراء وكتاب القصة والمقالة والمسرحية .

ان هذه « الواقعية » الانسانية الحية ، في ادبنا الطالع عامة ، وفي قصتنا العربية خاصة ، لتدل دلالة قاطعة اننا نستقبل في مرحلتنا الانسانية الوطنية الحاضرة ، ادباً جديداً ، وقصة جديدة ، وفناً جديداً .

وما دام الحديث عن القصة بالذات ، ارى ان الجديد في قصتنا العربية الان ، ليس يقتصر على انتهاجها منهج « الواقعية » الذي قلت ، وإنما هناك عنصر آخر لا يقل شأنا – في عقيدتي – عن ذلك الأمر الجديد .

واعني به هذا التمرد والتحرر من « تقاليد » كان يلتزمها كتاب القصة ، في الجيل الماضي ، التزاماً شديداً يبلغ حد التزمت ، او التقديس ... فانه لقليل جداً بين كتاب القصة العربية الجديدة ، القصة « الواقعية » ، من يلزم نفسه بهذه « التقاليد » ، أو من يستعبد موهبته واصالته الفنية ، للمقاييس التي تفرضها هذه « التقاليد » من امثال العقدة ، والمفاجأة ، واصطناع الاثارة وهيج العاطفة ، وبعث الحماسة الخالصة ، وتركيز أمر القصة كله على هذا التجاذب الجنسي بين المرأة والرجل ، او على هذا التحليل النفسي الموغل في عزل النفس الانسانية عما يدور في محيطها الاجتماعي من احداث واوضاع وتصاريف وتطورات لا تقف عن الحركة والتقدم .

وأكاد ارى هذا العنصر الجديد ، عنصر التحرر من « تقاليد » القصة « الكلاسيكية » ينب بقصتنا العربية الجديدة وثوباً يتبين اثره يوماً بعد يوم ، وذلك بشير بان تكون لنا ، في القريب الآتي ، منزلة مرموقة في انتاج القصة العالمية .

حسين مروّه